

من جماليات الثلثي للشعر الإسلامي

بقلم: الدكتور طارق سعد شلبي

١.

من البديهيات القارة في دراسة النصوص الأدبية أن المتلقي يمثل ركنا جوهريا من أركان الإبداع الأدبي، فالأدباء حين يعكفون على صياغة أعمالهم - على اختلاف الأجناس التي تنتمي إليها - إنما يرغبون في أن تقع هذه النصوص في إطار علاقة تواصل إيجابي حميم بين ما صاغوه من نصوص من ناحية، ومتلق مرهف يستشرف آفاق دلالة هذه النصوص من ناحية أخرى.

ذلك أن دلالة أي نص من النصوص لا يتاح لها قدر من التحقق الفعلي إلا في ذهن المتلقي، ومن هنا فقد كان رصد أبعاد التلقي للنص الأدبي رسدا لما ينطوي عليه هذا النص من «جماليات» يناط بها تكوين الدلالة. وهكذا نفطن إلى أن الحديث عن أبعاد التلقي إنما يصلح أن يوازي ما تضمنه النص الأدبي من خصائص أسلوبية بدءا من الصوت المفرد، وانتهاء بالصورة الكلية المركبة، وكذا بالمعنى الرمزي العميق الذي يوصل إلى النص إيحاء خفيا لطيفا، وما دراسة النصوص دراسة نقدية راصدة إلا مظهر من مظاهر التلقي المستند - بجوار الذوق والتواصل مع النص - على معايير منهجية محكمة.

وأبعاد التلقي متشابكة غاية التشابك، مركبة تركيبا معقدا

يتصل بكل ما يتضمنه النص من خصائص في الأسلوب، ومن أبعاد في الدلالة، وهو ما فرض علينا فرضا أن نخصص هذه السطور لرصد بعد من هذه الأبعاد ليقصر حديثنا عنه وقد وقع اختيارنا على مظهر مهم من المظاهر التي تتجلى فيها علاقة التواصل الإيجابي الحميم التي أشرنا إليها، وهو ذلك المظهر الذي يطلق عليه «التناس»، أو تداخل النصوص، وهو أن يُضمّن الأديب نصه شيئا مأخوذا من نص آخر بما يمكنه من تكوين الدلالة من ناحية، وإحداث التأثير الجمالي المرتجى على المتلقي من ناحية أخرى.

وتنصب هذه السطور على إيراد ما هو مأخوذ من القرآن الكريم في قصيدة الشعر الإسلامي، وهدفنا أن نستشرف الأبعاد التي يمكن أن يصادفها المتلقي بفضل هذا التضمين. وتتطرق هذه السطور كذلك إلى هذا المظهر الفني بوصفه سمة يمكن أن يتميز بها الشعر الإسلامي. وإليها يعود الفضل في اكتساب هذا الشعر ما يترأى فيه من ثراء دلالة، وحيوية تلق.

٢.

وتعد علاقة الشاعر بكتاب الله - كما تتبلور في التضمين الذي أشرنا إليه - مدخلنا إلى الحديث عن علاقة المتلقي بهذه الظاهرة الفنية، إذ يعد التضمين مرحلة من المراحل التي تجتازها العملية الإبداعية.

ويحقق التضمين من كتاب الله هدفين يتوق إليهما الشعراء، أولهما: زيادة طاقات التواصل مع المتلقين لما يمثل القرآن الكريم من مكانة سامية في نفوسهم، وما يشغله من مساحة شاسعة في وعيهم وتكوينهم الثقافي، وآخرهما: إكساب النص الشعري الطابع الإسلامي البارز الذي تزايد الاهتمام به لدى المتابعين للحركة الشعرية من النقاد والمتلقين من متذوقي الشعر وعاشقيه على السواء.

فالشاعر حين يُضمّن من كتاب الله إنما يفيد من الثراء اللغوي للنص القرآني الكريم الذي انعقد إجماع علماء اللغة على أنه جاء نهضة وتطويرا للغة في ألفاظها وتراكيبها ودلالاتها، وهو ما يحقق هدفا أثيرا للشعراء، وهو أن تكتسب لغة قصائدهم سمة الإحكام والجزالة. وهو ما يصون ما ينظمونه من قصائد عن الابتذال والسقطات اللغوية التي تفسد التواصل المبتغى مع المتلقي.

وبالإضافة إلى ذلك فإن التضمين يتيح للشاعر فرصة طيبة كي يشحذ أدواته الإبداعية من خلال التواصل مع صور القرآن الكلية المركبة التي تنطوي على قدرة متعاطفة على مخاطبة مخيلة المتلقي، بفضل ما تحوزه من أدوات لغوية وسمات فنية

تمثل الجوهر الأساسي لتأصيل درس الصورة في مظهرها الجزئي المفرد والكلّي الممتد، على نحو ما نجد في وصف القرآن الكريم لمشاهد الطبيعة، ولاهوال اليوم الآخر، وصور النعيم والعذاب وما إلى ذلك.

ويتيح توجه الشاعر إلى التضمين فرصة التأمل في نهج القرآن الكريم في الإبانة عن الدلالات المجردة التي لا يكاد ذهن يحيط بها، بما يدفع في نفس المرء شعوراً باستحالة التطرق إلى شيء يسير من أبعادها إن هو أعمل ذهنه فيها، فإذا بالبيان القرآني المعجز يحيط بها إحاطة كاملة، في عبارة بيّنة محكمة، تخاطب وعي المسلم ووجدانه معاً! فإذا تأمل المرء ما حصله من دلالة وهيبا البيان القرآني استبان له استحالة أن يجد من ألفاظ اللغة وتراكيبها - على كثرة هذه الألفاظ والتراكيب وتنوعها - ما يعبر عن هذه الدلالات المجردة إلا ماورد في كتاب الله، على نحو ما نجد في حديث القرآن الكريم عن ركائز الاعتقاد بالله، وإبانته عن أبعاد الدلالات المجردة كالرحمة والعذاب والنفاق، وإفاضة في تصوير أنماط النفس الإنسانية وما إلى ذلك.

٣.

وتعد علاقة الشاعر بكتاب الله - كما تتبلور في التضمين - معياراً يصلح أن نقيس به مهارة الشاعر الإبداعية، فثمة تضمين ينبئ عن مهارة الشعراء وامتلاكهم الأسس الضرورية لنجاح قصائدهم فالتضمين البارع هو ذلك الذي يسمو عن أن يكون مجرد «إقحام» مفتعل لكلمات من كتاب الله داخل القصيدة إذ قد يتوهم بعض المتصدين لنظم الشعر أن مثل هذا الإقحام يحقق لهم الطابع الإسلامي المرجو، ولا يدري هؤلاء أنهم لا يكسبون شعرهم إلا ملمحاً شكلياً يبقى دون السمات الأصلية للأدب الإسلامي الذي تؤول ظواهره الفنية إلى ثراء دلالي لافت.

فالشاعر البارع - إذن - هو الذي يحقق قدراً من الملاءمة بين المضمّن وسائر أجزاء القصيدة من ناحية النظم، فيضمن ألا يكون التضمين جزءاً غريباً عن سائر القصيدة، وهو ما يبلور معياراً بعينه نحكم به على جودة التضمين، وهو أن تكون ثمة أبعاد دلالية لا يمكن أن تكتسبها القصيدة دون هذا المظهر الفني.

٤.

ولا تتضح هذه الأبعاد الدلالية إلا في رحاب جماليات التلقي، وثمة تساؤل أساسي يمثل مدخلنا للوقوف على هذه الأبعاد، وهو: ما طبيعة علاقة المتلقي بالمضمّن؟ إن التضمين يفرض على المتلقي أن يبذل قدراً من النشاط

الذهني الفعال، فقد يقف عليه حين يردّ في النص صراحة، وقد يكون وروده في النص على نحو خفي غير جلي يفرض على المتلقي تساؤلات حوله، وهكذا يتبين لنا أن إدراك المضمّن - مع كونه من المراحل الأولية التي يمر بها تلقي النص الشعري - إلا أنه يمكن أن يكون ذا قدرة واضحة على إكساب التلقي حيوية لافتة.

وبعد هذه المرحلة الأولية نجد أن ثمة تحركاً مزدوجاً يجد المتلقي نفسه وقد طوّل به، كي يدرك الأبعاد الدلالية التي وهبها التضمين للنص، إذ يتحرك ذهن المتلقي - جيئةً وذهاباً - من نطاق النص المستدعي المائل بين يديه إلى آفاق النص الكريم المستدعي.

وسرعان ما يتبلور هذا التحرك المزدوج في عملية ذهنية معقدة تتمثل في «المقارنة»، وتتخذ هذه المقارنة عدة مسارات، يمثل كل مسار منها مستوى من مستويات التلقي للنص الشعري، فقد تنصب هذه المقارنة على الجانب الشكلي الأسلوب، وصولاً إلى أوجه الاتفاق والاختلاف بين المضمّن في القصيدة وأصله في القرآن الكريم، وهو وجه من المقارنة يطلع المتلقي على «حرفية» الشاعر ومهارته الفنية في صوغ القصيدة وبناء تراكيبها.

وينتقل المتلقي بعد ذلك إلى مستوى أعمق، إذ يمتد إطار المقارنة ويتسع ليشمل السياق الجزئي الذي يحيط بالموضع الذي شهد التضمين في القصيدة مقارنة بالسياق الموازي في كتاب الله.

وتشرع دلالة القصيدة - في مجموعها - تتبلور إزاء المتلقي في هذه المرحلة، إذ تمكنه المقارنة المنصبة على السياقين من إدراك الوحدات الدلالية الكبرى التي تؤول إليها القصيدة، والوقوف على الصلات القائمة بينها، وهو ما يمثل دافعاً للمتلقي كي يقف على تفرد دلالي لهذه الأجزاء يوازي تفرداً بالتضمين وتمثل الأبعاد الدلالية المرهفة لكتاب الله المدخل الأساسي لإدراك هذا التفرد المشار إليه.

ذلك أن نجاح التضمين منوط بقدرته على تنمية طابع ديني أصيل يتراءى في القصيدة، وذلك من خلال فكرة «التكثيف الدلالي»، إذ قد يحيل المضمّن المذكور في القصيدة إلى مدى دلالي متسع يشمل الآية المأخوذ منها، وقد يتسع ليشمل هذه الآية وما يكتنفها من أي.

وهكذا يستبين لنا الدور المهم الذي ينهض به التضمين في إكساب النص الطابع الإسلامي الذي يؤول إلى ثراء دلالي لافت، وهو ثراء يتبلور فيما يستلزمه من حيوية في التلقي.

